

الوافي في الوفيات

وكان صحيح العقيدة عنده علمٌ وأدبٌ يحبُّ العلماء ويحترمهم . وله في الجهاد مع أبيه مشاهد معروفة وآثار جميلة ووقف أوقافاً جليلاً على قبّة الصخرة وغيرها . ولشعراء عصره فيه أمداح طائفة وقصائد هائلة مثل ابن الساعاتي وابن سناء الملك وغيرهما .

فمن قول ابن سناء الملك فيه من جملة قصيدة :
مَلِكٌ اسْمُهُ عَلِيٌّ وَلَكِنْ ... كِيدُهُ فِي حُرُوبِهِ كِيدُ عَمْرٍو .
لَيْسَ يَنْفَكُ بَيْنَ فَتْكِ وَفَتْحٍ ... حِينَ يَخْتَالُ بَيْنَ نَصْلِ وَنَصْرِ .
وَجْهَ الْبَدْرِ فِي الْحُرُوبِ وَلَا تَع ... جَبُّ إِذَا كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ بَدْرِ .
ومنه من قصيدة أخرى :

حَسْبِي عَلِيٌّ نَدَى حَسْبِي عَلِيٌّ هَدَى ... حَسْبِي عَلِيٌّ جَدَا حَسْبِي عَلِيٌّ عُلَا .
حَسْبِي أَبُو حَسَنِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... يَسْتَفْرِغُ الْحَوْلَ أَوْ يَسْتَفْرِغُ الْحَيْلَا .
حَمْدُ آخِرِ أَيَّامِي بِخِدْمَتِهِ ... وَلَسْتُ أَحْمَدُ مِنْ أَيَّامِي الْأَوَّلَا .
ذَكَرِي بِهِ سَارَ حَالِي عِنْدَهُ عَظُمَتٌ ... قَدَرِي بِهِ جَلَّ مَقْدَارِي لَدَيْهِ عِلَا .
ومن قول ابن الساعاتي فيه يمدحه :

وَزُرْتُ مَصْرًا بَغَابٍ مِنْ قَنْدًا وَطُجَيْ ... قَلَّاتٍ لَهُ شَامَخَاتُ الْمُدُنِ وَالْقُلَلُ .
سَكَنْتُهَا حِينَ سَكَنْتَ الْبِلَادَ بِهَا ... جَمْعًا وَثُقُفًا ذَاكَ الزَّيْغُ وَالخَطَلُ .
فَلِلْقُلُوبِ اللُّوَاتِي طَالَمَا وَجَبَتْ ... بِهَا سَكُونٌ وَلِلدُنْيَا بِهَا زَجَلُ .
نَهَارُهَا بِكَ أَسْحَارٌ مَقْدَسَةٌ ... جَمِيعُهَا وَاللَّيَالِي كُلُّهَا أُصْلُ .
حَلَّاتٌ عَنْهَا وَحَلَّاتِ الزَّمَانِ بِهَا ... فَالْيَوْمَ لَا عَطَابُ يُخْشَى وَلَا عَطَلُ .
حَيْثُ السَّحَابُ بَنُودٌ وَالْقَرَسِيُّ لَهَا ... رَعْدٌ وَلِلنَّجْلِ فِيهَا عَارِضٌ هَطَلُ .
فَعَلَّاتٌ مَا سَرَّ حَتَّى لَا مِثَالَ لَهُ ... وَقَلَّتْ مَا سَارَ حَتَّى إِنَّ نَسَهُ مَثَلُ .
مَا غَلِقَ الْبَحْرُ فِيمَا ظَنَّ رَاكِبَهُ ... وَإِنَّ نَسَمًا هَزَّ مِنْ أَعْطَافِهِ الْجَذَلُ .
يَرْتَاحُ عِنْدَ أَخِيهِ حِينَ جَاوَرَهُ ... فَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلُ .

قال الشيخ شمس الدين : كان فيه تشيُّعٌ ولم يكن في الملوك مثله قلَّما عاقب على ذنب كثير العفو والحلم . وقال كمال الدين بن العديم : لم يكن متشيِّعاً وإنَّما قال هذا الشعر لموافقة الحال وتقرُّباً إلى الإمام الناصر إذ كان منسوباً إلى التشيُّع . انتهى . قلتُ : ولما تعصَّب أخوه العزيز عليه وعمُّه العادل قال :

ذي سُنْدَّةٌ بين الأنام قديمةٌ ... أبداً أبو بكرٍ يجور على علي .

وكتب إلى الإمام الناصر : .

مولاي إنَّ أبا بكرٍ وصاحبهُ ... عثمانَ قد غَمَّبا بالسيف حقَّ علي .

وهو الذي كان قد ولاه والده ... عليهما واستقام الأمرُ حين ولَّي .

فخالفاه وحلاً عقد بيعته ... والأمرُ بينهما والنصُّ فيه جَلِي .

فانظروا إلى حظِّ هذا الاسم كيف لقِي ... مِنْ الأواخرِ ما لاقى من الأُولِ .

فجاء جواب الناصر من إنشاء ابن زبادة وفيه : .

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالحقِّ يخبرُ أنَّ أصلك طاهرٌ .

غَصَبُوا عليَّ حقَّه إذ لم يكن ... بعدَ النبيِّ له بيثربَ ناصرٌ .

فاصبرُ فإنَّ غداً عليٌّ جزاءهم ... وابشِرْ فناصرُك الإمام الناصرُ .

وفي ذلك يقول شرف الدين بن عُنَيْنٍ من قصيدةٍ كتبها إلى أخيه من الهند : .

هيهاتَ آتي دمشقَ ومُلْكها ... يُعزى إلى غيرِ المليكِ الأفضلِ .

ومن العجائبِ أن يقومَ بها أبو ... بكرٍ وقد علمَ الوصيةَ في علي .

مهلاً أبا حسنٍ فتلك سحابةٌ ... صيفيَّةٌ عمَّالٍ قليلٍ تنجلي .

ومن شعر الأفضل : .

قلْ لمن في العذارِ أطنبَ جهلاً ... ويُباهي بوصفه ويُغالي .

لم يكن في الجنان يُفقدُ في الولِّ ... دانٍ لو كان من صفات الجمالِ .

ومنه : .

وقبَّلتُ خدَّيَّ للحبيبِ مُورَّداً ... بروحي أُفدَّيَّ منه خدَّيَّ مُورَّداً .

فمن حَرَّ أنفاسي علا فوق خدِّه ... دخانٌ فخالوه عِذاراً مُزَرَّداً .

ومنه :